[فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾]

[فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى] الطامة اسم من أسماء القيامة وهي الساعة، والمقصود بها النفخة الثانية التي يحصل بها البعث؛ بدليل ما بعدها من الآيات. وللساعة أسماء متعددة؛ عدَّ القرطبي: منها ثمانين اسماً ، وعدَّ ابن كثير: خمسين اسماً. وليعلم أن الأسماء التي سماها الله تعالى، أو سماها نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، كما أن أسماء الله الحسنى أعلام، وأوصاف، وأسماء نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، وأسماء القرآن أعلام، وأوصاف، وكذلك أسماء القيامة أعلام وأوصاف؛ فهي أعلام من حيث دلالتها على ذات المسمى، وأوصاف من حيث اختصاص كل اسم منها بوصف يميزه عن غيره. فالطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والآزفة، كلها أسماء لمسمى واحد، لكن كل اسم منها يحمل دلالة خاصة؛ فالصاخة تصخ الآذان، والقارعة تقرع القلوب، والآزفة قريبة الوقوع، والطامة لأنها تطم كل هائلة سواها؛ أي تغمرها. وكل داهية دونها. ولذا سماها (الكبرى)، وما عظمه الله فلا ريب أنه عظيم .

[يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾]: قيل أن هذا جواب "إذا" في قوله: [فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾] أي حينئذ يتذكر الإنسان ما سعى. وقوله : [الْإِنسَانُ] أي جنس الإنسان، من مؤمن وكافر، وقوله: [مَا سَعَى] أي في الحياة الدنيا، ما قدم، وما فَرَط منه. قال ﷺ : " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا "رواه مسلم[1] حينما يُبعث الإنسان يوم القيامة، يمر عليه شريط الحياة التي حياها ستين سنة، أو سبعين سنة، أو تسعين سنة، أو أقل، أو أكثر، يتذكره كله، كما قال تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ] {آل عمران:٣٠}، وكما قال تعالى في سورة الفجر: [يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ] {الفجر:٢٣} هذه الذكرى لا فائدة من ورائها، إلا إقامة الحجة .

---

[1] صحيح مسلم (٢٢٣).

[وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾]: [وَبُرِّزَتِ]أي أظهرت، كما في الحديث الصحيح : " يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا "رواه مسلم[٢]، وهذا يدل على أنها خلق عظيم هائل، وأنه مشهد مخوف .

[فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾]: ابتدأ التقسيم ، ومعنى [طَغَىٰ] أي تجاوز؛ لأن الطغيان معناه التجاوز، كما قال الله، ﷻ: [إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ] {الحاقة:١١} يعني لما تجاوز حده، والمقصود هنا أي تكبر، وتجبر، وعصى، وكفر .

[وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾]: [وَءَاثَرَ] بمعنى قدّم، وفضّل الحياة الدنيا على الآخرة، وذلك باتباع الشهوات، فلم يؤمن، ولم يستجب، وقال كما قال هؤلاء المنكرون للبعث: (أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر)، فنظرتهم هي النظرة الدنيوية المادية، التي ترى أن الذكي، والحاذق، هو الذي يعب من الشهوات عباً، ولا يلزم نفسه بشيء. وهذه الحياة الدنيوية هي حياة من يسمون بتعبير العصر (العَلمانيين) نسبة إلى العالَم، أي الدنيا، لا نسبة إلى العِلم، كما يلفظها بعض الناس، بكسر العين . والترجمة الصحيحة لهذا المصطلح (الدنيويون)، بإزاء (الدينيين) أهل الدين. فهؤلاء لا يعنيهم إلا متاع الحياة الدنيا، ولا ينظرون إلا بمنظور المادة، ولا يعنيهم أمر الدين. فيصدق عليهم قول الله ﷻ: [فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾].

[فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾]: [ٱلْجَحِيمَ] اسم من أسماء النار، وهي علم، ووصف؛ وسميت بالجحيم لتجحمها، يعني لأنها تجحمت من شدة الإيقاد عليها، فهي سوداء مظلمة. ومعنى [ٱلْمَأْوَىٰ]: يعني المرجع، والمآل .

[وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾]: هذا هو القسم الثاني، و[مَنْ] بمعنى الذي، [خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ]: يعني خاف المُقام بين يدي الله، ﷻ. فبين عينيه دوماً أنه سيقف بين يدي الله،قال النبي ﷺ "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"متفق

[٢] صحيح مسلم (٢٨٤٢).

عليه[٣]. فالمؤمن يخاف من هذا المقام بين يدي الله. وقد أثمر هذا الخوف نهي النفس عن الهوى، والمقصود بالهوى ما تهواه النفس، أي تميل إليه ، وغلب استعمال الهوى على الأمر المذموم، وإلا فقد يهوى الإنسان أمراً محموداً. فهذا الموفق، والنفس الله لها ثلاثة أحوال: تارة تكون مطمئنة، وتارة تكون أمارة، وتارة تكون لوامة. فالمقصود بقوله: [وَنَهَى ٱلنَّفْسَ] جنس النفس الأمارة، وهي التي تأمر صاحبها بالسوء، كما قال الله، ﷻ، على لسان امرأة العزيز: [۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾] {يوسف:٥٣}. وعلى النقيض منها النفس المطمئنة، ذات القلب المطمئن، قال الله ﷻ: [يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾] {الفجر:٢٧-٣٠} نفس ساكنة، خاضعة، راضية، رضية ، رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ، ليس لها نزعات، وتطلعات، وميولات، وهفوات، فهي تحب ما يحب الله، وتبغض ما يبغض الله، هاتان نفسان متقابلتان. وبين هاتين النفسين، نفس تترد جيئة، وذهاباً، تارة تنزعها حالة النفس الأمارة، وتارة تنزعها حالة النفس المطمئنة، وهى التي أقسم الله تعالى بها بقوله: [لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾] {القيامة:٢} يعني التي تتلوم على صاحبها، والتلوم هو التلون؛ بمعنى أن لها لوناً تارة ولوناً تارة أخرى، فهي لما . فنفوسنا في الأعم الأغلب، نسأل الله أن يصلح أحوالنا، نفوس لوامة، فإنِ الإنسان غلّب الإيمان، ووعظ نفسه، نزع إلى جانب النفس المطمئنة، وإن هو اتبع هواه، وتمنى على الله الأماني، مال إلى النفس الأمارة، فلهذا قال الله ﷻ: [وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ]، وهذا يحمل معنى المجاهدة ؛ لأن النفس تحتاج إلى مجاهدة، لابد من فقه النفس ، يجب أن تعلم أن نفسك التي بين جنبيك، قد أودعها الله الخير والشر، قال سبحانه: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾] {الشمس:٧-٨} كما سياتي في تفسيرها.

[فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾]: الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، قد تخلصت وتنقت من شوائبها، وعوالقها الرديئة. والمأوى هو المرجع والمصير .

---

[٣] صحيح البخاري (٧٠٧٤)، صحيح مسلم (١٠١٦).

هذا تمام التقسيم، وجواب عن قوله: [فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾] يعني فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس إلى فريقين، فريق مآله إلى الجنة وفريق مآله إلى النار .

[يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾] يعني متى وقت وقوعها، وحصولها، كأنه مأخوذ من رسو السفينة، فالسفينة تمخر عباب البحر، ثم ترسو على الشاطئ .

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) : أي في أي شيء أنت من ذكراها، كأنه يقول: ليس تعين أوانها من شأنك ، كما قال ﷺ لجبريل عليه السلام ، لما سأله عن الساعة قال "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" متفق عليه[٤] ، ولما قال له أعرابي : متى الساعة ؟ قال "ما أعددت لها؟" متفق عليه[٥] ، فأمر الساعة قد أخفاه الله ﷻ، كما قال في آية الأعراف: [لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ] {الأعراف:١٨٧}، فالساعة قد أخفاها الله، و كل ما تسمعون من دعاوى، ومزاعم، أن انتهاء العالم سيقع عام كذا، وكذا، فهو رجم بالغيب، يقول الله ﷻ: [قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾] {النمل:٦٥} .

[إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾] أي أن موعدها، علمه عند ربك، فهو مما اختص الله تعالى بعلمه، كما أخبر عن ذلك في آخر سورة لقمان فقال: [إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ] {لقمان:٣٤} .

[إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾]: هذه مهمتك التي ينتفع بها غيرك؛ ليس الإعلان عن موعد الساعة، وإنما النذارة من قرب وقوعها [مَن يَخۡشَىٰهَا] يعني من يخشى الساعة، هو الذي تحصل له النذارة ، والنذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف .

[كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾]: يعني عشية يوم، أو ضحوته، والعشية هي آخر اليوم، والضحى أوله ، كما أخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر عنهم، فقال: [نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا] {طه:١٠٤}، سبحان الله ! تمضي كل هذه السنين والعقود، فتبدوا للناظر يوم القيامة، كأنما هي عشية أو ضحاها، فيالها من موعظة بليغة!.

---

[٤] صحيح البخاري (٥٠)، صحيح مسلم (٨).

[٥] صحيح البخاري (٦١٦٧)، صحيح مسلم(٢٦٣٩).

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: أن أسماء القيامة أعلام وأوصاف .

الفائدة الثانية: هول القيامة الكبرى؛ لأن الله سماها الطامة .

الفائدة الثالثة: ذكر الإنسان لسعيه بعد البعث .

الفائدة الرابعة: إثبات الجنة والنار.

الفائدة الخامسة: أن الجزاء من جنس العمل .

الفائدة السادسة: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها، مما يدل على أن للعبد فعل، ومشيئة، واختيار يؤاخذ عليه، ويثاب عليه .

الفائدة السابعة: كمال عدل الله ﷻ.

الفائدة الثامنة: شؤم الطغيان، وإيثار الشهوات.

الفائدة التاسعة: فضل الخوف من الله، ومجاهدة النفس.

الفائدة العاشرة: تشوف الناس للعلم بالساعة.

الفائدة الحادية عشرة: اختصاص الله تعالى بعلم الساعة .

الفائدة الثانية عشرة: أن العبرة بالإعداد لها .

الفائدة الثالثة عشرة: حقارة أمر الدنيا في الآخرة.